معالم الإصلاح عند صوفية الغرب الإسلامي
خلال القرنين السادس والسابع الهجريين

نادية حمالي

كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس

فاس المغرب

يعتبر موضوع الإصلاح من أضخم الموضوعات، وهو أساس بناء المجتمع، كما أنه وما يزال المقوم والركيزة الأساسية للتقدم والخروج من الأزمات على اختلافها زمانا ومكانا وشدة وضعفا، وكثيرا ما كانت الظروف السياسية المفروضة من الخارج هي التي تقوي الرغبة في الإصلاح وتدعو إليه، ولعل هذا الأمر هو الذي حذا بصوفية القرنين 6 و7هـ/ 12 و13م إلى اتخاذ صفة المصلحين، خصوصا وأن تلك الفترة عرفت اضطرابات على جميع المستويات في تاريخ المغرب. من جهة أخرى عرف التصوف أحكاما متناقضة بين المؤيدين له والمعارضين كما يظهر من خلال بعض الممارسات المحسوبة على التصوف والتي لا تمت إلى حقيقته بصلة. إذ كثيرا ما يُساء إليه بتلك الأحكام الجاهزة والمسبقة أكثر مما يخدمه . زد على ذلك التصور المغلوط لدى فئة كبيرة من المتنورين الذين يطعنون في التصوف جملة وتفصيلا باعتباره انحرافا فكريا ودينيا يعطل العقل والعلم ويعرقل البناء والتعمير والمشاركة في صرح الحضارة إذ كثيرا ما يسمونه بالسلبية والخمول والعطالة والبطالة والتخلف ولذلك كان لزاما علينا أن نقف موقف المصحح والموجه نحو حقيقة التصوف وبيان أهميته و قيمته، و معناه الشرعي ما يقربه من الفهم الصحيح قدر الإمكان.

وسأحاول في هذا المقال التركيز على أهم معالم الإصلاح عند صوفية الغرب الإسلامي خلال القرنين 6و7هـ/ 12و13م من خلال عدة مستويات. وقد اخترنا هذه الفترة بالذات باعتبارها فترة تقعيد للفكر الصوفي بالمغرب، ومنه انطلق وانتشر في باقي البلاد ، بالإضافة إلى تفنيد المزاعم القائلة بأن الصوفية طائفة من العباد انعزلت عن الناس وتقوقعت على نفسها في الصحاري والقفار.

وقد تناولت بالتحليل مجموعة من المباحث فخصصت المبحث الأول للإصلاح على المستوى الديني التربوي فأكدت من خلاله على أن الإصلاح مقصد شرعي ومطلب ديني تواترت به النصوص، وسار عليه السلف الصالح من هذه الأمة ولا سبيل إلى الإصلاح اليوم إلا بالرجوع إلى ذلك. وذكرت في المبحث الثاني الإصلاح على المستوى الاجتماعي ووضحت فيه الوظائف التي كانت تقوم بها الصوفية في خدمة الفئات المحتاجة ومساعدتها على تأمين مسالك الحج و غير ذلك.

وأما المبحث الثالث فتطرقت فيه الى الجانب السياسي والعسكري وبينت فيه مواقف الصوفية من الحكام المستبدين الذين يبسطون حكمهم بالقوة، بحيث كانوا يحتجون على ظلمهم ويردونهم عن عدوانهم إلى طريق العدل والصواب. كما أنهم شاركوا في العمل السياسي من خلال ما ذكرنا قبل قليل، كما شاركوا في الجهاد لمواجهة أطماع الأعداء بالسيف تارة وبالدعوة إلى الله تارة أخرى لأن الجهاد عند الصوفية أوسع وأعم من مقاتلة العدو فقط.

وبيان ذلك يكون على النحو التالي :

1 - الوظيفة الدينية والتربوية:

حاول الصوفية في الفترة الممتدة بين القرن السادس والسابع الهـجريين ، نقل المجتمع المغربي من مرحلة تطبيق أحكام الفقه إلى مرحلة أعلى، تتمثل في إدراك معاني العبادة، وفق نظرة مقاصدية أخلاقية موازية لمقاصدية الفقهاء ذات النظرة الخلقية والمنهجية الأصولية. لذلك شكلت المبادئ الأخلاقية الأرضية التي انطلق منها الصوفية في تأطير المجتمع، وبما أن هذه المبادئ تنطلق من الزهد كأساس في تنظيم العلاقات بينهم وبين سائر فئات المجتمع(1)أ فقد اعتمد هؤلاء على عدة وسائل لنشر تعاليم الإسلام كمجالس الذكر والعلم وتحفيظ القرآن والدعوة (2).. وكان الصوفية

1 – العلماء والصلحاء والسلطة في المغرب والأندلس: محمد المغراوي، ص370.

2 – نفس المرجع، ص371.

من أهل الفقه والحديث والتفسير كأبي عبد الله بن المجاهد، وأبي وكيل ميمون الوريكي، وأبي محمد الجليل القصري الذي ألف في الفقه كتاب "الأسئلة والأجوبة" (1).

فقد كانوا يعقدون مجالس للعلم وللتذكير يلقون فيها المواعظ ويشرحون فيها كتب التصوف، ومنهم من كان يشرح العلوم الشرعية كالتفسير بنفس صوفي (2).

وقد اشتهر من الصوفية عدد من الوعاظ كأبي محمد تيلجي بن موسى الدغوغي (ت605هـ)، وأبي علي الخراط الذي كان الفقهاء في وقته والعلماء يعظمونه ويسمعون مواعظه (3). وأبي عبد الله محمد بن أبي بكر رشيد البغدادي (ت663هـ) الذي كانت له مجالس وعظ في غرناطة ومراكش وعدة مدن (4).

بالإضافة إلى مجالس الوعظ التي تقام في القصر السلطاني بمراكش في أيام الجمع كمجالس أبي عبد الله محمد بن أحمد اللخمي الواعظ المعروف بابن الحجام (ت614هـ) الذي استقدمه المنصور إلى مراكش، وذكر ابن الزيات أنه كان حسن الموعظة شديد التأثير، فتاب بسماع مواعظه كثير من الناس (5).

هذا فضلا عن دور الصوفية في نشر الإسلام والتصوف السني، وقد كان للربط والزوايا دورا فعالا في التكوين العلمي للصوفية، فمنهم من كان من أكابر العلماء وأفاضل الأتقياء، وكان شديد الشكيمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنهم من كان من العلماء بطريق التصوف حافظا لأخبار الصالحين (6).

1- أبو محمد عبد الجليل القصري: ضمن مدينة القصر الكبير، الذاكرة والحاضر، ص110.

2- العلماء والصلحاء والسلطة في المغرب والأندلس: محمد المغراوي، ص371.

3- المستفاد: التميمي، ص135.

4- كشف الظنون: حاجي خليفة، ج1، ص417.

5- التشوف: ابن الزيات، ص439-440.

6- نفس المرجع، ص390-406-424.

فالمعتاد في تاريخ التصوف السني المغربي «أن الولي(1) لا يكون إلا عالما ولا يكون جاهلا» دليلنا في ذلك أبو العباس أحمد بن عاشر (ت767هـ) الذي زاوج بين التصوف والفقه، لذلك فهو من أعلم الناس بالحلال والحرام. وبه نجح الفقه في هذا الباب بالمغرب(2). وقد اتبع الصوفية كل السبل المفيدة في نشر الإسلام والتصوف السني وإصلاح المجتمع، فأبو زكرياء يحيى بن علي الزواوي (ت610هـ) من حرصه على تغيير ما اعتاده الناس من مناكر كان دائم الوعظ والتذكير(3)، أما مظاهر التشجيع المادي فيعكسها ما قام به أبو القاسم بن منصور الغمري الذي رتب للطلبة والمدرسين أرزاقهم في زاويته (4).

وكان من أثر نشر التصوف السني داخل المغرب وخارجه من قبل الصوفية، أن بعض المسيحيين لم يكتفوا بالدخول في الإسلام بل تحولوا إلى أولياء مثل رضوان أبي نعيم بن عبد الله الجنوي (ت991هـ) وأصله من جنوة الإيطالية، الذي أسلم والده على يد أحد صلحاء تطوان وحج. أما ابنه المذكور فتحول إلى محيي الطريقة الشاذلية (5).

كما شكلت الجزر المحيطة والأراضي المسيحية مجالا لنشر الإسلام والتصوف السني، وفق خصوصية التجربة المغربية كما تجاوز تأثيرهم إلى مصر وبلاد السودان..وغيرها (6).

9- قال القشيري : فإن قيل : فما معنى الولي ؟ قيل : يحتمل أمرين : أحدهما : أن يكون فعيلاً مبالغة من الفاعل كالعليم والقدير وغيره ، فيكون معناه : من توالت طاعاته من غير تخلل معصية . ويجوز أن يكون فعيلاً بمعنى مفعول كقتيل بمعنى مقتول ، وجريح معنى مجروح وهو الذي يتولى الحق سبحانه حفظه وحراسته على الإدامة والتوالي فلا يخلق له الخذلان الذي هو قدرة العصيان ،وإنما يديم توفيقه الذي هو قدرة الطاعة ، قال الله تعالى (وهو يتولى الصالحين).الرسالة القشيرية:ج2ص664

2- التصوف السني في تاريخ المغرب: تقديم إبراهيم القادري بوتشيش، ص150.

3- التشوف: ابن الزيات، ص428.

4- التصوف السني في تاريخ المغرب: ص151.

5- نفس المرجع، ص152.

6- وقد فصلت منال عبد المنعم القول في تأثير التصوف المغربي على البلدان الأخرى في كتابها "التصوف في مصر والمغرب".

2- الوظيفة الاجتماعية:

تميز التصوف المغربي بالنزعة الاجتماعية، للارتباط العضوي لأهله بالمجتمع وتفاعلهم الإيجابي معه، وفي هذا المستوى نهض رجال التصوف بعدة أدوار اجتماعية أكدت انخراطهم في هموم المجتمع وتضامنهم مع الناس في الأزمات العامة كالجفاف والمجاعات والحروب (1). وكان الناس يستعينون بهم في مواجهة المصائب والظلم.

لقد تعددت أوجه الوظيفة الاجتماعية للصوفية، لكن الخاصية المشتركة بينها هي أنها أعمال مجردة عن أي هدف مادي أو دنيوي لأنها شكلت جزءا من سلوك ديني كانت أبعاده وأهدافه أخروية(2).

أ-الإطعام والصدقة:تميز التصوف المغربي بمسألة التصدق بالطعام، والتي أصبحت أصلا للسلوك الصوفي عند بعضهم كالشيخ أبي محمد عبد الخالق بن ياسين الذي قال : «طلبنا التوفيق زمانا، فأخطأناه، فإذا هو في إطعام الطعام» (3). وجعل أبو العباس السبتي (ت601هـ) شعار مذهبه "الوجود ينفع بالجود" (4). وطور من جهته نظرية الصدقة وسماها "الاتجار مع الله" واعتبر أن آيات الصدقة تعني المشاركة، أي مشاركة الفقير للغني في ماله، لقد اختار أبو العباس السبتي طريقا متميزا في معالجته التفاوت الاجتماعي، تمثلت في تبادل المنافع بين الميسورين والمحتاجين، وقسم مبدأ الصدقة إلى مقامات تربوية جعل الهدف منها إخراج الصوفي من التعلق بالمادة بالتدريج، وتعويده على التفكير في غيره في جميع أحواله والتعبد بالسخاء (5). وهذه الظاهرة تترجم بوضوح التوجه الاجتماعي لتصوف أبي العباس السبتي.

1- المستفاد: التميمي: ص29-50، التشوف: ابن الزيات: ص153

2- العلماء والصلحاء والسلطة بالمغرب والأندلس في عصر الموحدين": محمد المغراوي، ص375.

3- التشوف: ابن الزيات، ص223.

4- نفس المرجع، ص453.

5- العلماء والصلحاء والسلطة بالمغرب والأندلس في عصر الموحدين": محمد المغراوي، ص 377.

كان الصوفية يعتبرون الصدقة من صميم المجاهدة، ذكر ابن الزيات أن الصوفي أبي شعيب السارية (ت561هـ) كان معلما للقرآن بدكالة، وكان يجلس أثناء تعليم الصبية القرآن، فإذا انصرفوا تصدق بجميع ما اكتسب من التعليم، خوفا أن لا يكون قد وفى بها عليه من الحقوق (1). ومثله كان يفعل الشيخ أبو العباس أحمد بن إسماعيل بن لب المعروف بالسلاوي (ت604هـ) خطيب القرويين ذكر التميمي أنه كان يدرس النحو، ويقبل الإجارة على ذلك ممن أعطاه من غير مسألة، فإذا أخذه أعطاه للفقراء ممن يحضر عنده (2).

كما أسهم قاضي قرطبة ابن المناصف (أبو عبد الله محمد بن أسبغ (ت536هـ) في إطعام مدينته وجياعها عام المجاعة سنة(535هـ)، فكان ينفق في إحدى السنوات العجاف«كل يوم على أكثر من ثلاثمائة بيت يعيل ديارهم ويقيل عثارهم» (3). هذا النص له مغزى اجتماعي عميق أعطى القاضي من خلاله مثالا للتضامن في أبهى صوره لتخفيف معاناة المحرومين، وتحفيز غيره من الميسورين للإسهام في تفريج كرب المعسرين، وهذا ابن العريف (ت536هـ) خلال فترة المسغبة التي عصفت بالأندلس في الثلث الأول من القرن 6هـ/ 12م، يصدر فتوى مفادها أن «خدمة الفقراء ومساعدة الضعفاء وقضاء حوائجهم من الأمور المفضلة على الحج..». يتضح من خلال هذه الفتوى قيمة التضامن الاجتماعي، وارتباط العلماء بقضايا الإنسان في المنعطفات الصعبة ،وتقديم الإطعام عن الحج لدرء خطر المجاعة ،لان حفظ النفس لها مكانة في أصول الدين، ولا غرو فإن منزلة «القوت من الدين كالرأس من الجسد» (4)، والأمثلة عديدة في هذا الصدد.

ب-التضامن في الأزمات:

شكلت كوارث القحط والجوع والغلاء، مناسبات للفئات الفاعلة في المجتمع وخاصة العلماء والصوفية لربط جسور التكافل ومد المساعدة للمنكوبين، ذكر ابن الزيات في هذا الصدد أبا

1- التشوف: ابن الزيات، ص 187.

2- المستفاد: التميمي: ص114/ 115.

3- التصوف السني في تاريخ المغرب: ص225.

4- التصوف السني في تاريخ المغرب: ص225.

حفص ابن معاد الصنهاجي (ت561هـ) الذي جمع في مجاعة (535هـ) بأزمورخلقا كثيرا من المساكين« فكان يقوم بمؤونتهم وينفق عليهم ما يصطاده من الحوت وغيره إلى أن أخصب الناس» (1). وذكر التميم في مجاعة أخرى ارتفع سعر الحبوب بفاس وكان عند أبي عبد الله محمد بن مليح إمام مسجد "ايصليتن" عشر صحاف من شعير، فلم يمنعهما عن كل من يسأل (2). وهذا يعكس ملامح الاتجاه التكافلي للتصوف السني بالمغرب والأندلس المعتمد على الوسطية في فهم الدين والواقع وفق مقاصد الشريعة التي تدور أحكامها مع مصلحة الإنسان، وأولوياته المستعجلة، وفي مقدمتها الإسهام في تحرير الأسعار وإغاثة الجياع خاصة في الأزمات، وفي هذا شهدت قرطبة وجزيرة شقر «غلاء مفرطا سنة (540هـ) وكان أبو العباس الإقليشي قد اعد ستين دينارا نفقة للحج، فقدمها على الإطعام»(3). وهذا يدل على حرص الصوفية على تنشئة المجتمع على قيم التضامن، وسلوكات التكافل، ومحاربة البخل، وتدعيم قيم البذل والعطاء.

إن هذا السلوك التضامني لم يكن يقتصر على الظروف الصعبة التي كان المجتمع يجتازها بل كان سلوكا طبيعيا في حياة الصوفية، والنماذج كثيرة يصعب حصرها.

ج- تأمين الرحلة إلى الحج:

عمل الصوفية على إقامة مؤسسات اجتماعية تضامنية تسعف المعوزين إلى الذهاب إلى الحج، مما يذكر في هذا الصدد الدور الفعال الذي قام به أبو بكر صالح الماجري (631هـ) الذي يعود إليه الفضل في تأسيس ركب الحاج المغربي الذي عرف "بالركب الصالحي" (4). وكانت هذه الفترة قد شهدت بعضا من الفوضى في اعتراض طريق الحجيج ذهابا وإيابا من قبل الصعاليك واللصوص ، الشيء الذي دفع بعض الفقهاء للافتاء بإسقاط فريضة الحج حفاظا على النفس، وعدم

1- التشوف: لابن الزيات، ص183.

2- المستفاد: التميمي، ص93.

3- التصوف السني في تاريخ المغرب: ص226.

4- المنهاج الواضح: أبو محمد صالح: ص351.

تعريضها للتهلكة في خضم ذلك قام الشيخ الماجري بتوفير الأمن للحجاج بإجماع الفضلاء والعلماء على ذلك (1).

وهكذا شكل تشجيع الرحلة إلى الحج إحدى وظائف التصوف السني بالغرب الإسلامي التي كانت متعددة ولا تنحصر في مجال بعينه.

3 - الوظيفة السياسية:

علاوة على الدور الاجتماعي الذي قام به الصوفية، نجد أنهم أيضا أنيطوا بمهمات سياسية أهمها وقوفهم في وجه ظلم الحكام واستبدادهم (2). وقد أصبح الناس يتوجهون بالشكوى إلى الصلحاء، إذا مسهم ظلم من رجال السلطة، الذين كان لهم خلال القرن 6هـ سلطة قوية في أقاليمهم وأعمالهم (3). ولم يكن الهدف من لجوء الناس إلى الأولياء توقع الكرامة دائما (4)، بل كان أحيانا للتشفع بحرمتهم، والاحتماء بجاههم خاصة وأن بعض الأولياء كانوا يحظون باحترام السلطة وممثليها(5). وكان وقوفهم في وجه تجاوزات رجال السلطة يعطيهم صبغة احتجاج ديني قوي التأثير.

1- تاريخ التصوف السني بالمغرب: ص181 بتصرف.

2- الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس: حسن علي حسن، ص477.

3- العلماء والصلحاء والسلطة: محمد المغراوي، ص413.

4- الكرامة هي: فعل لا محالة محدث ، لأن ما كان قديماً لم يكن له اختصاص بأحد ، وهو ناقض للعادة ، وتحصل في زمان التكليف وتظهر على عبد تخصيصاً له وتفضيلاً . وقد تحصل باختياره ودعائه وقد لا تحصل له وقد تكون بغير اختياره في بعض الأوقات ، ولم يؤمر الولي بدعاء الخلق إلى نفسه ولو أظهر شيئاً من ذلك علـى من يكون أهلاً له لجاز. الرسالة القشيرية :ص661

5- الحضارة الإسلامية في المتغرب والأندلس: حسن علي حسن، ص477.

وذكر ابن الزيات في "التشوف" أمثلة لذلك منها تدخل أبي شعيب أيوب بن سعيد الصنهاجي (ت561هـ) مرارا للإفراج عن بعض المعتقلين الذين كان والي المدينة يريد قتلهم. وقد استجاب الوالي لشفاعته، فأطلق سراحهم إرضاء له (1).

ونفس الشيء لأبي إبراهيم إسماعيل بن وجماتن الرجراجي (ت595هـ) (2). كان الناس يشتكونه جور عمالهم، فكان يقوم بانتقاد العمال يوم الجمعة، ويلقي مواعظه بعد انقضاء الصلاة، يضمنه كلاما محرجا للسلطة بحضور ممثليها،وكان يتعرض للسجن من أجل ذلك، ويستغل وجوده بالسجن مرات عديدة ليعظ المسجونين فتابوا على يده(3).

وهذه بعض الحالات التي توضح دور الشيخ الصوفي السياسي والاجتماعي وتبرز طبيعة علاقته مع السلطة.

4- الوظيفة العسكرية:

أ- الوظيفة الجهادية:

تعكس التجربة الصوفية بالمغرب تلازم الجهاد والتصوف، إذ من الصعب التمييز بينهما في تاريخ التصوف السني المغربي، ومما ساعد على تنامي الدور الجهادي للصوفية ما تعرض له المغرب على مدى مراحله التاريخية من ضروب التهديد الخارجي والتحديات التي فرضها التعنت الصليبي(4). لذلك وجه الصوفية اهتمامهم للمقاومة والجهاد، فقد تواتر أن في المغرب صلحاء وفقهاء وعلماء، وأنه دار جهاد موطن ورباط(5).وقد اعتبر حسين مؤنس أن الدور الرئيس لأهل

1- التشوف: ابن الزيات، ص88.

2- التشوف: ابن الزيات، ص354.

3- نفس المرجع، ص355.

4- التصوف السني في تاريخ المغرب: ص160.

5- نفس المرجع: ص145.

المغرب يكمن في المرابطة وحماية الجناح الغربي للعالم الإسلامي معتبرا أنه:«إذا كانت المالكية هي العصب الأول لتاريخ المغرب، فإن الرباط هو العصب الثاني بل يكاد يكون علة وجوده»(1).

فتعدد الأدوار وتداخلها للربط والزوايا، حيث ربطها الفقهاء بمكان الجهاد والحراسة، أما الصوفية فربطوها بموضع العبادة والتعريفان يجتمعان في التركيز على الوظيفة التعبدية والحربية للرباط والزاوية انطلاقا من قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَّ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:200]

لذلك فالرباط والزاوية فضاء للعبادة والدراسة والجهاد والاجتماع، ومن ثم فإن مزاولة الصوفية بين وظيفتي الجهاد ونشر العلم أعطى للربط والزوايا بالمغرب ذلك المعنى المفارق حيث صارت لفظتا الرباط والزاوية تطلقان على معان عدة منها المعنى العسكري والتعبدي والعلمي(2).

فالأدوار الجهادية للصوفية لم تكن تعترف بضيق الحدود السياسية، بل طالما راهن الصوفية المغاربة على وحدة الأمة والجماعة ، فبالغرب الإسلامي شكلت الأندلس مقصد الصوفية، كعلي بن عبد الله بن حمود المكناسي (ت573هـ) دخل إلى الأندلس بنية الغزو والرباط(3). وأبو محمد عبد الواحد بن تومرت الهسكوري الأسود (ت591هـ) «لما توجه المسلمون إلى جزيرة الأندلس لغزو الروم نهض معهم فاستشهد رحمه الله في غزوة الأرك»(4). في حين استشهد أبو الصبر أيوب بن عبد الله الفهري السبتي في معركة العقاب التي انهزم فيها الموحدون بالأندلس سنة (609هـ) (5).

وكذلك الحال بالجزائر التي لقيت السند من أولياء المغرب بإيعاز من السلاطين المغاربة لمواجهة الأتراك والفرنسيين فيما بعد (6). وبالشام شارك الصوفية المغاربة في الحروب الصليبية إلى

1- نفس المرجع، ص146.

2- التيار الصوفي والمجتمع في الأندلس والمغرب اثناء ق8هـ/ 14م. محمد مفتاح ص25.

3- التصوف السني في تاريخ المغرب: ص163

4- التشوف: ابن الزيات،ص 359.

5- التصوف السني في تاريخ المغرب: ص162.

6- نفس المرجع: ص163.

جانب جيش صلاح الدين الأيوبي لتحرير القدس، فأبو الفضل العباس بن أحمد (ت595هـ) ذكر التميمي أنه«ترك امرأة وأولادا له وخرج للجهاد إلى الشام فتوفي في الغزو»(1).

ومما يزيد من أهمية الوظيفة الجهادية للصوفية، تدخل بعضهم لإعفاء من لم يقدر على أداء الخدمة العسكرية الإجبارية لظروف عائلية (2). كما شكل فك الأسرى مظهرا آخر من مظاهر الدور الجهادي للصوفية. خاصة وأن منهم من وقع في الأسر بفعل مشاركتهم الفعلية في الغزوات داخل المغرب وخارجه(3). كإبراهيم بن عيسى بن أبي داود (ت650هـ) «الذي وقع في قبضة النصارى، فأخذوه أسيرا وأقام ببلاد النصارى دون الثلاث سنين»(4).

كما تباينت أدوار الصوفية في تحرير الأسرى بين الافتداء المادي والدعاء لهم والتدخل المباشر لدى المسيحيين(5). كأبي داود مزاحم (ت578هـ) الذي بنى رابطته قرب الحسيمة لمجاهدة المسيحيين بالبحر الأبيض المتوسط، فقد تم أسره من قبل العدو، وبعد الإفراج عنه، لم يرض حتى يفرجوا عن كل المسلمين الذين عندهم فاستجابوا لطلبه(6). في حين أسهم إسحاق بن مظهر في فك أسر ثلاث مغربيات من أهل غمارة، كن أسرن شرقي تطوان بـ 26.5 دينارا من أصل 280 دينارا ذهبيا طالب به النصارى(7).

وظائف الصوفية في تثبيت الأمن الداخلي وتأمين المسالك التجارية:

انتشرت الزوايا والربط في العديد من المحاور والمراكز التجارية الرئيسية لحماية تلك المراكز، ومن ثم وجد التجار ملاذهم في الصوفية لحمايتهم مما طال القوافل التجارية والحجية من نهب ولصوصية، مثل الطريق بين مليلية وكبدانة بالريف شمالي المغرب، التي تركز فيها النشاط

1- المستفاذ :التميمي،ج2، ص87.

2- التشوف: ابن الزيات،ص 279.

3- المستفاد: التميمي، ج2، ص174.

4- التصوف السني في تاريخ المغرب: ص170.

5- التشوف: ابن الزيات،ص 159.

6- المقصد الشريف :البادسي، ص52.

7- نفس المرجع، ص111-112.

الصوفي لأنها كما وصفها البادسي: « مخوفة جدا من...العدو البحري واللصوص، فلا يكاد يجوزها إلا الجمع الكثير»(1). فأبو صالح عبد الحليم بن هارون الهسكوري (ت593هـ) ذكر ابن الزيات « أنه دأب على أن يجيز الرفاق من المخاوف، فإذا سمع اللصوص بأنه تقدم رفقة فروا ولم يتعرضوا، وكان يتقدم الرفاق من بلد إلى بلد على قدميه محتسبا لا يبتغي على ذلك أجرا إلا من الله تعالى»(2).

ومما جعل الصوفية يدركون خطر الفتن الداخلية والحرابة عن المسالك التجارية، أن بعضهم كان يتعاطى للتجارة كمحمد بن الحسن (ت 595هـ) كان من تجار الصحراء، وأبي الحسن علي بن ريسون الذي كان يتاجر في السلع ويشتري في الأسواق(3). ونماذج كثيرة في هذا الصدد.

والخلاصة: أن التصوف لم يقتصر على جانب الزهد والإعراض عن الدنيا وتعاطي للدين والانغماس في العبادة، ولكنه كان حركة واسعة شملت كل المجالات فهو يهتم بالدين ممارسة وتعبدا لله ودعوة إلى إقامته في نفوس الناس. إسهاما منه في تصحيح مسار المجتمع وتوجيهه نحو خالقه وتقوية دعائم وحدته من تضامن وتعاون ضد الأزمات والأخطار الداخلية والخارجية والطبيعية كذلك. هذا بالإضافة إلى دوره في بناء النفوس وتقويتها في المرابطة والمجاهدة بمفهومها الواسع لدحر الأعداء ومنعهم من الاعتداء على وحدة الأمة وكرامتها. وكذلك مجاهدة النفس ومحاربة الأهواء والبدع، كما يحدد للتصوف موقفه التاريخي من الظلم والاستبداد ومقاومة وجوه الفساد والسعي وراء تحقيق العدالة الإنسانية وليس الاجتماعية فحسب. وبالتالي كان التصوف في الغرب الإسلامي متميزا على المستوى العقائدي والتعبدي الأخلاقي وعلى المستوى الاجتماعي والسياسي ما جعله قبلة العديد من الأتباع والمريدين من الأمة الإسلامية وغيرها من الدول.

1- نفس المرجع، ص14.

2- التشوف: ابن الزيات، ص339.

3- التصوف السني في تاريخ المغرب: ص179.

لائحة المصادر والمراجع

***المصادر**

- القران الكريم برواية ورش.

- الرسالة القشيرية : عبد الملك القشيري (ت465ه) تحقيق عبد الحليم محمود ومحمد بن الشريف،دار المعارف للنشر القاهرة.

- التشوف إلى رجال التصوف: ابن الزيات (ت627ه)،تحقيق أحمد توفيق، نشر كلية الآداب بالرباط 1984م.

- المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد : لأبي عبد الله محمد بن عبد الكريم التميمي الفاسي، (ت603/ 604 هـ) دراسة وتحقيق محمد الشريف، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، طبعة 2002.

- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون مصطفى بن عبد الله كاتب حاجي خليفة(ت1067هـ) :الناشر مكتبة المثنى – بغداد

***المراجع**

-الصوفية معتقدا ومسلكا: صابر طعيمة،دار عالم الكتب للنشر الرياض

- التصوف السني في تاريخ المغرب: نسق نموذجي للوسطية والاعتدال، مجوعة من المؤلفين، تقديم وإشراف إبراهيم القادري بوتشيش،منشورات الزمن سلسلة شرفات العدد 27، الطبعة 2 سنة 2013م.

- التصوف في مصر والمغرب: منال عبد المنعم، الناشر منشأ المعارف بالإسكندرية (دون سنة النشر)

- العلماء والصلحاء والسلطة بالمغرب والأندلس في عصر الموحدين": محمد المغراوي. دكتوراه نوقشت في 2002/ 2001م بكلية الآداب بالرباط

- المنهاج الواضح في تحقيق كرامات أبي محمد صالح:أحمد بن إبراهيم الماجري،تحقيق عبد السلام السعيدي، دار أبي رقراق للطباعة والنشر 2013/ 1434هـ

- الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس: حسن علي حسن،مكتبة الخنائجي للنشر مصراً الطبعة الأولى 1980م.

- التيار الصوفي والمجتمع في الأندلس والمغرب أثناء ق8هـ/ 14م. محمد مفتاح أطروحة لنيل دكتوراه الدولة، جامعة محمد الخامس – الرباط –